الإرهاب الجديد! (*)

لم أستطع رغم ما اصطنعت من هدوء، أن أكتم الدهشة التى غمرتنى وأنا أقرأ فى أهرام الثلاثاء ٢٠٠٦/٢/٢١، خبر الحكم الذى أوقعته إحدى محاكم النمسا بسجن المؤرخ البريطانى دافيد ايرفينج ثلاث سنوات لأنه أنكر الهولوكوست.. صدمة الخبر لم تأت فقط من هذه المفارقة العجيبة فى بلاد تتغنى بمساحة هائلة ـ غير منكورة ـ من الحرية، وإنما لأنها تتزامن مع الانفلات الذى حدث فى إهانة الإسلام ورسول الإسلام عليه السلام، دون أن يتمنطق أحد ليرد عن نبى أحد الدينيين الكبيرين اللذين يسودان العالم غائلة هذا التوحش والتهجم البذىء المخالف لكل الأعراف فى احترام الرسل والأنبياء، بل واعتبار ذلك من باب حرية الرأى والتعبير، دون أن يهتز لهم جفن، أو يستوقفهم هذا التناقض الزاعق الصارخ الذى يهدهد اليهود ولا يستثنى الصهيونية ولا توحشها وجرائمها وترسانتها النووية من هذه الهدهدة.. والأعجب من هذه المساءلة أن يتراجع المؤرخ البريطانى تحت الضغوط التى تعرض لها عما أبداه، مع أن إيرفينج ليس صاحب عبارة شاردة يعتذر أو يتراجع عنها، ولا صاحب هجوم متهجم ضال مفتئت يبرر ـ ولا مبرر ـ معاملته كالمجرمين ومعاقبته بالسجن ثلاث سنين أو سنة أو أسبوعاً!!.. وإنما هو صاحب نظر وبحث علمى رصين، من حق من يشاء أن يختلف معه، ولكن ليس من حق أحد أن يصادر عليه ناهيك بأن يعاقبه عنه!.. إيرفينج لم ينكر الهولوكوست على إطلاقه، ولكنه فى كتابه: نورمبرج،

---

* ٢٠٠٦/٣/٢

المعركة الأخيرة، توقف باحثا فى الأرقام المعطاة لضحايا الهولوكست بعامة، أو معسكر أوشفيتز فى بولندا، وكشف ببحثه أنه اطلع على القوائم الرسمية لأسماء الأسرى الذين ماتوا بالمعسكر، ووجد من بينهم من ماتوا بالمرض أو لأسباب طبيعية غير الحرق بأفران الغاز!.. الخطير فى ملاحقة وعقاب إيرفينج، أنها مصادرة جهولة على حرية البحث العلمى، لا سابقة لها فى أظلم عصور محاكم التفتيش!!!

غريب أمر الحرية الغربية، وغريب أكثر أمر هذا المنطق المصاب بحول عجيب، السائد الآن تحت مظلة الرخ الأمريكى.. الرخ الأمريكى لم يتحرك لحماية السيد المسيح عليه السلام حينما قامت السينما الأمريكية بصناعة وبث فيلم "الغواية الأخيرة للمسيح" The last Temptation of Christ" وهو فيلم يصور السيد المسيح عليه السلام فى مشاهد جنسية مع مريم المجدلية، صورتها الغة السينمائية للفيلم على أنها مشاهد تراءت للسيد المسيح على الصليب.. لم يفزع الرخ الأمريكى، ولم يثر للسيد المسيح عليه السلام، ولم يقاض مؤلف الفيلم أو كاتب السيناريو أو المخرج، ولا قاضى دور السينما التى عرضت الفيلم ولاتزال تعرضه، فى أمريكا وفى أوربا حيث النمسا وغير النمسا، فلم ينزعج أحد، ولم يثر أحد، مثلما لم يحرك أحد ساكناً إزاء هدم المساجد بالعراق، أو إزاء الرسوم الكاركاتورية القبيحة المستهزئة التى صوروا بها رسول القرآن ﷺ..

ماذا حدث أو يمكن أن يحدث، وماذا يمكن أن يصيب الصهيونية المهدهدة، من أن يرى مؤرخ رأياً غير ما يرضى المنتصرين للصهيونية ولكافة جرائرها؟!.. هل تغير العالم وتغير التاريخ وزالت إسرائيل لأن مؤرخا ارتأى أن الصورة المرسومة لهولوكوست الجارى

الابتزاز بها تخالف واقع ما جرى.. هب أن رأيه خطأ، فهل هذا هو الرأى الخطأ الوحيد فى البحوث والدراسات والرؤى السياسية والتاريخية، فإن لم يكن، ولن يكون، فما سبب "الحُمَّى" التى أصابت عقر الديمقراطية الغربية، وماذا أصاب الحرية المتباهى بها حتى تحكم المحكمة النمساوية بسجن العالم المؤرخ ثلاث سنوات؟!.

لقد استحضر هذا المشهد، مشهد محاكمة والحكم على المفكر الفرنسى - الذى أسلم - "روجيه جارودى" عن تهمة معاداة السامية عن كتابه "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" الذى ناقش فيه محاكمات نورمبرج وما انتهت إليه!!، واستحضر هذا المشهد - فيما استحضر - القانون الهمايونى الذى أصدره الرئيس الأمريكى فى أكتوبر ٢٠٠٤ لتتبع وضرب ما أسماه معاداة السامية.. هذا القانون الذى يفرض جناحيه ووصايته وشوكته على العالم أجمع!.. يربط بين معاداة السامية وبين أى موقف مناهض لجرائر وجرائم وسياسة إسرائيل والصهيونية، لم يكف القانون ملاحقات منظمات مكافحة "معاداة السامية" وعلى رأسها منظمة ميمرى" Memri" ومقرها واشنطن، وعصبة ADL .. وإنما أدخل الحكومة الأمريكية بثقلها طرفاً أساسياً فاعلاً فى هذه الملاحقة !.. هذا القانون الذى وقف وراءه "توم لانتوس" اليهودىالأمريكى المعروف بعدائه الجامح للعرب، وتحيزه السافر لإسرائيل وسياساتها، استقبله الصهاينة بالأهازيج والطبول لأنه أقام جداراً لا يصد فقط عن العنصرية الإسرائيلية، وإنما يهدد بالملاحقة والتنكيل كل من يجرؤ على انتقادها، ينهض على ذلك شعبة خاصة جديدة أنشئت لهذا الغرض بالخارجية الأمريكية مهمتها أن تتابع لتفرض الولايات المتحدة الأمريكية وصايتها ورقابتها على دول العالم وتلحق العقاب بمن تشاء!

فى الوقت الذى يلاحقون فيه كل من يجرؤ على الاختلاف مع عنصرية وجرائم إسرائيل، بدعوى معاداة السامية، لا يستوقفهم حملة الكراهية التى شنتها أبواق الصهيونية ضد الفنان الأمريكى المعروف "ميل جيبسون" الذى أنتج وأخرج فيلم "آلام المسيح"، مع أن الفيلم لم يتوسد إلاّ الحقائق التاريخية الثابتة عن الدور الذى لعبه اليهود فى واقعة الصلب بغض النظر عن شخص المصلوب !

هذه الملاحقات لا تترصد فقط - كما رأينا - حرية البحث العلمى، وإنما تترصد حرية الصحافة والرأى والتعبير، وليس ببعيد الحملة الصهيونية التى استهدفت الصحافة واستهدفت فيما استهدفت الصحافة المصرية، واختارت الأهرام لتقيم عليها من خلال احدى الجمعيات اليهودية فى فرنسا - دعوى أمام محكمة باريس بسبب مقال فى أمر صار ملكا للتاريخ!.. تحرم حملات الكراهية والسلاح المشهر بمعاداة السامية أى نقد لإسرائيل أو وصف أعمالها بالعنصرية أو النازية، مع أن من الكتاب اليهود من انتقدها بمثل ذلك، منهم إسحق شاحاك فى كتابة" الأصولية اليهودية" الذى عبر فيه عن استهواله المقولات العنصرية ضد العرب والفلسطينيين التى تشنها جماعات يهودية أمثال أتباع الحاخامين "كوك": الأب والابن، والحاخام "شمر ياهوأريلى".. أمام هذا الإرهاب الجديد، لم يعد من حق أحد أن يكشف ستر الحوادث المفتعلة للإيحاء بوجود معاداة للسامية فى أوربا، بل ومضت الملاحقة تحت الحماية الأمريكية لتطرد أحد الأعضاء من مجلس النواب الألمانى بتهمة معاداة السامية، ولم تقتصر تهمة معادة السامية على الوقائع التاريخية التى لا خيار لأحد فيها، فامتدت الملاحقة من البحث والتاريخ والصحافة، الى مجال الأدب.. وقد رأينا الحملة المنظمة المدبرة التى شنت فى الصحف الألمانية مشفوعة بأوصاف النازية والعنصرية ضد الروائى الألمانى "مارتين فاسلر" على روايته: "موت ناقد".. بل ولم يسلم الفاتيكان

نفسه والبابا شخصيا والكنيسة الكاثولوكية من الاتهام بمعاداة السامية أو بالإسهام فى المحرقة النازية أو غض البصر عن جرائم النازية!

مخاطر هذه الحملة الغشوم، أنها تصادر العقل وتصادر الفكر وتصادر الرأى والتعبير، وتتغيا ليس فقط تكميم الأفواه أو تقييد الأقلام، وإنما تعقيم العقول ذاتها وتجفيف القرائح والحيلولة بين الآدمى بعامة وبين أن يكون كائنا مفكراً!!.. هذا التفكير الذى به تميز الآدمي عن باقى الأحياء!.. والأخطر فى هذه الحملة أنها تأتى - على خلاف ما يقدره أصحابها - بعكس المطلوب بها، لأنها سوف تستدعى من مشاعر السخط والضيق والاعتراض ما سوف يشكل مع الأيام حركة مناهضة سيكابدها من يستحسنون اليوم تعقيم الإنسان ومصادرة عقله وفكره ورأيه!!!.